واضع علم النحو ومؤسسه:

علمت اجمالا أن واضعه من رجالات عصر الاسلام ، لكن المختلف فيه من قبل المتقدمين والمتأخرين من النحاة والمؤرخين هو من المؤسس والواضع الرئيسي لهذا العلم، والكلام على ذلك لايعدو إما الإمام علي كرم الله وجهه ، كما يرى الأنباري والقفطي، أو أبو الأسود الدؤلي كما يراه ابن سلام في طبقات الشعراء ، وابن قتيبة في المعارف ، والزجاجي في الأمالي، وأبي الطيب اللغوي في مراتب النحويين، والسيرافي في أخبار النحويين البصريين ، وابن النديم في الفهرست. أما عزو الوضع إلى نصر بن عاصم الليثي أو عبد الرحمن بن هرمز فغير صحيح لايستند إلى أدلة مقنعة.

يقول الأنباري في نزهة الألبا: اعلم أيدك الله تعالى بالتوفيق ، وارشدك إلى سواء الطريق ، أن أول من وضع العربية علم العربية وأسس قواعده وحد حدوده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، وأخذ عنه أبو الأسود الدؤلي....، وسبب وضع علي لهذا العلم ما روى أبو الأسود قال: دخلت على أمير المؤمنين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فوجدت في يده رقعة فقلت : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال: إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسدت بمخالطة الحمراء ، يعني الأعاجم فأردت أن أضع شيئا يرجعون إليه ويعتمدون عليه ، ثم ألقى إلي الرقعة وفيها مكتوب : الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبىء به ، والحرف ما أفاد معنى ، وقال لي : انحُ هذا النحو ، وأضف اليه ما وقع إليك ، ولهذا آثر العلماء تسمية هذا العلم باسم (النحو) استبقاءا لكلمة الإمام التي كان يراد بها معنى اللغوي للنحو، إذ أنه كان مشهورا ب(العربية) كما قال ابن سلام في الطبقات:

وكان أول من استن العربية ، وفتح بابها ، وأنهج سبيلها ، ووضع قياسها ، أبو أسود الدؤلي،

وقال ابن قتيبة في المعارف: أول من وضع العربية أبو الأسود، وقال ابن حجر في الإصابة: أول من ضبط الصحف ووضع العربية أبو الأسود .

ويقول القفطي (646هـ): رأيت بمصر في زمن الطلب بايدي الوراقين جزءا فيه أبواب من النحو يجمعون على أنه مقدمة علي بن ابي طالب التي اخذها عنه أبو الأسود الدؤلي.

وروي عن أبي الأسود أنه سئل، فقيل له: من أين لك هذا النحو ؟ فقال: لفقت حدوده من علي بن أبي طالب. اذا ليس بغريب على أبي الأسود أن ينسب أول وضعه إلى علي فإنه من شيعته ومحبيه تيمنا ببركته ، فقد كان علوي الرأي ، يجاهر بتشيعه وهواه، فيمدح الإمام بالقصائد الحسان، وعمال البصرة وسواد العراق يشقون عليه ويعنتونه ، حتى بنوقشير الذين جاورهم وصاهرهم بزواجه منهم امرأته أم عوف أجرموا معه ، فسبوه ونالوا من علي كرم الله وجهه إيلاما له ، وقذفوه ليلا بالحجارة حيث أنهم كانوا عثمانيي. وكان يردعليهم بقوله:

يَقولُ الأرذلونَ بَنو قُشَيرٍ طَوالَ الدَهرِ لا تنسى عَليّا

فَقُلتُ لَهُم وَكَيفَ يَكونُ تركي مِنَ الأَعمالِ ما يُقضى عَلَيّا

أُحِبُّ مُحَمَّداً حُبّاً شَديداً وَعَبّاساً وَحَمزَةَ وَالوصِيّا

وَجَعفَرَ إِنَّ جَعفَرَ خَيرَ سِبطٍ شَهيداً في الجِنانِ مُهاجِرِيّا

وَما أَنسى الَّذي لاقى حُسَينٌ وَلا حَسَنٌ بِأَهوَنِهِم عَلَيّا

بَنو عَمِّ النَبيِّ وَأقرَبوهُ أحَبُّ الناسِ كُلِّهِمُ إِلَيّا

فإِن يَكُ حُبُّهُم رُشداً أُصِبهُ وَفيهِم أُسوَةٌ إِن كانَ غَيّا

فقالت بنو قشير : شككت يا أبا الأسود في قولك: فإن يك حبهم . فقال: أما سمعتم قول الله تعالى : وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين.

ولقد اتفق العلماء متقدمين ومتأخرين على أن أبا لأسود هو الذي ابتكر شكل المصحف، عمل يقف به عند الخطوات الحقيقية التي وعت حق النحو. فمع كثرة اللحن في الكلام ووصوله إلى النص القرأني كانت الفزعة التي أوصلت إلى صنيع أبي الأسود وهو نقط الشكل الذي اعتمده في محاورته النطقية قائلا لكاتبه:

" إذا وجدتني ضممت شفتي فضع نقطة فوق الحرف....."

وكانت هذه النقاط دالة على أهم تشكيل للموقع النحوي من خلال توضيح المرفوع من المنصوب من المجرور ؛ والذي ظهر في صنيع أبي الأسود لايمكن أن يوصل بالنحو وحده فما أظن أن البنية كانت غائبة وإن لم ينقط ، ذلك أنه من غير المنطقي أن يكون النقط جزءا من وعي القاريء بموقع العلاقة وحدها ؛ لأنه كما من المنطوق نهايته في إطار المبني لا المعرب الذي لا يغير موقعه الارتكاز أو عدمه على تشكيل آخره للزوم هذا الآخر شيئا واحدا.

وفي صنيع أبي الأسود يلمس الدارس أمرين :

أ. أن أبا الأسود كان الناطق المسجل لحق العلامة بناءا على ادراك لحق المتلو وبناءا على ادراك بسياقات وقياسات . فدوره دور القاريء والمتلقي معا.

ب. أن كاتبه كان المستمع المسجل لما يرى ناقلا بأمانة ماحددته حركة الشفاه نقلا أمينا لا تحريف فيه.

لا تهوين من صنيع أبي الأسود هذا المتفق عليه فهذا عمل يكفيه أن يكون لبنة أولى في التفكير النحوي؛ لأن فيه تحركا صوب العلامة التي كانت وقتها ركنا من أركان سلامة التركيب اللغوي .

وروى عاصم قال: جاء أبو اسود الدؤلي إلى زياد ، وهو أمير البصرة، فقال إني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم، وفسدت ألسنتها ، أفتأذن لي أن أضع للعرب مايعرفون به كلامهم؟ فقال زياد لاتفعل. قال: فجاء رجل إلى زياد فقال : أصلح الله ألأمير ؛ توفى أبانا وترك بنونا ، فقال زياد : توفى أبانا وترك بنونا ؟! ادع لي أبا الأسود فلما جاءه قال له: ضع للناس ماكنت نهيتك عنه، ففعل.

وقد روى ابن النديم في كتابه الفهرست: أن رجلا بمدينة الحديثة اسمه محمد بن الحسين كان جماعة للكتب ، وقد آلت إليه خزانة صديق له كان مشتهرا بجمع الخطوط القديمة ، قال ابن اسحاق: " فرأيتها وقلبتها فرأيت عجبا ، إن الزمان قد أخلقها ، وعمل فيها عملا أدرسه.....ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود ما هذه حكايته ، وهي أربع اوراق وأحسبها من ورق الصين ترجمتها : هذه فيها كلام في الفاعلوالمفعول من أبي الأسود رحمه الله عليه بخط يحيى بن يعمر، وتحت هذا الخط بخط عتيق خط علان النحوي ، وتحته هذا خط النضر بن شميل .

وقد اتفقت جملة الروايات على نسبة علم النحو إلى منشيء واحد وهو أبو اسود الدؤلي هو المؤسس لعلم النحو كما بيناه.

وإليك هذه المدارس وأصولها وقواعدها التي تفردت بها:

1 –المدرسة البصرية:

رغم أن الخلاف يشوب الكثير من تفاصيل نشأة النحو إلا أن إجماع المصادر قائم على اقتران اسمه بمدينة البصرة، وهي التي يعزى إليها وضع النحو العربي، وتأصيل مناهجه، ففي أحضانها ولد هذا العلم وترعرع قرابة قرن من الزمن. بدأ النحو في هذه المدينة بصورته البسيطة شأنه شأن كل علم في بداية رحلته، وانطلاق شرارة النحو من هذه المدينة جعلها صاحبة أول مدرسة نحوية لها أصولها وقواعدها، وإليها ينتمي رؤوس النحاة الأوائل. وذلك على أيدي أعلامها الكبار، أمثال: عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت 117هـ).

يرى النحاة أنه يعد أول من وضع القياس والعلل، يقول ابن سلام عنه: " كان أول من بعج النحو _أي فتقه_ ومد القياس وشرح العلل، فرع عبدالله بن أبي اسحاق النحو وتكلم في الهمز حتى عمل فيه كتابا مما أملاه".

ويروى أن يونس بن حبيب سأله عن كلمة (السويق) وهو الناعم من دقيق الحنطة هل ينطقها أحد من العرب الصويق بالصاد فأجابه : نعم قبيلة عمرو بن تميم تقولها ، ثم قال له: وماتريد إلى هذا؟ عليك بباب من النحو يطرد وينقاس.

نصوص واردة وإن كانت متفرقة ثبت محاولة ابن أبي اسحاق للوصول إلى تصور منهج للنحو وهي نصوص أكدت حرصه على القياس وبالرغم من أنه كان قارئا نحويا فإنه المعيار لديه كان واضحا في اختيار القراءة التي توافقه.

بيان ذلك: كانت القواعد النحوية التي توصل إليها لا يجيز على خبر كان أن يكون جملة طلبية فلما نظر في قراءة النصب في قوله تعالى :﴿والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيدهما﴾.

اختارها على قراءة النصب التي لا تتفق مع روايته المشهورة على الرغم شيوع قراءة الرفع عند جمهور القراء ، وعلى الرغم أن القراءة سنة متبعة لاتحكم عليها القاعدة.

يروي ابن سلام في طبقاته : "سمعت رجلا يسأل يونس بن حبيب البصري عن ابن أبي اسحاق وعلمه؟ قال: هو والنحو سواء ، أي هو الغاية . قال فأين علمه من الناس اليوم؟

قال: لو كان في الناس من لا يعلم إلا علمه لضحك به ولو كان فيهم أحد له ذهنه ونفاذه ونظر نظرهم كان أعلم الناس". فالحضرمي خطوة في مجال نشأة النحو تقدر بزمانها وسياقها وهي ماقبلها تحسب في طريق نشأة مدرسة نحوية.

ويبدو أن حرص ابن أبي اسحاق بالقياس وأثره بدا واضحا في تلميذه عيسى بن عمرو النحوي (ت 149هـ) يرث عن ابن أبي اسحاق الطعن على العرب الفصحاء ؛ أي على السماع اعتمادا على ما لديه من قواعد ومع أنه كان شغوفا باللغة وغريبها مما سبب له متاعب كما تحكي كتب النوادر إذ هو صاحب العبارة المشهورة:

"مالكم تكأكأتم على كتكأكئكم على ذي جنة افرنقعوا عني"

من أرائه التي اشتهر بها أنه لا يسلم للعرب فصاحة كل ما قالوه، فقد عاب على النابغة قوله:

فبتّ كأنّي ساورتني ضئيلة من الرّقش في أنيابها السّمّ ناقع

فقد قال إن من حق «ناقع» أن تكون منصوبة، و عيسى كان ميالا إلى النصب .

ثم جاء أبو عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب، ثم جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ) وله دور كبير في النهوض بالنحو؛ إذ شهد نمواً واسعاً على يده، فقد كان

الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله ، وجاء سيبويه (ت 180هـ) فطلع على الناس بكتابه الذي دوّن فيه زبدة الأفكار النحوية التي تلقاها ممن سبقوه من النحاة، فعد أول كتاب وصل إلينا شاملاً ومبوباً ترتيباً في غاية الدقة، فحظي بإقبال وإعجاب معظم دارسي العربية .

وقد سيطر الاتجاه البصري على مجرى النحو العربي في الأغلب الأعم منذ النشأة إلى عصرنا الحاضر حتى إنه يصح أن يُقال إن النحو العربي في تاريخه الطويل نحو بصري ،الذين خطوا خطوات واضحة في مجال تطوير النحو، ثم جاء بعدهم جيل من أعلام النحاة ممن تتلمذوا عليهم فواصلوا السير على نهجهم مع مخالفتهم لهم في المسائل التي تملي عليهم اجتهادهم.